ما يسمى بالنهضة الحديثة

النهضة الحديثة ـ إنها الميلاد المتكرر للعصور القديمة . فبعد سقوط القسطنطينية في قبضة الترك عام ١٤٥٣ ، حمل العلماء اليونانيون المهاجرون لواء الفكر القديم إلى فلورنسا ، وأضاءوا بنور تراث اليونان ظلمة أوروبا في القرون الوسطى . وعلى هذا النحو فقد دخلت في تركيب معرفتنا بشكل ثابت لا يرقى إليه الشك .

لاغرو ، فإن التقسيم الدقيق والمفيد للتاريخ المطرد ككل إلى مقاطع ثابتة يحقق بالطبع وبوضوح نظرة شمولية مجزأة ونظرة عابرة . إلا أن هذا التحكم الفظ ، عادة ما يؤدي معه إلى بتر المراحل التاريخية ، المتطورة تطوراً بطيئاً ، قسرياً .

والسؤال الذي يفرض نفسهُ هنا : ما إذا كان من الجائز أو الواجب ، أن ندرج معارف جديدة ، وثيقة الصلة تاريخياً في مجرى التاريخ وفق تقسيم حجمي آخر .

فهناك محطات دفنت بعمق في تفهمنا التاريخي . عمد فيها مؤرخونا إلى الفصل ما بين اليوناني ـ الروماني القديم ، والعصور المسيحية الأوروبية ، وبين هذه الأخيرة والعصر الحديث ، وإلى وضعها مع بداية العصر الحديث أو ما يدعى بعصر النهضة في القرنين الخامس والسادس عشر .

وبشعاع الأكاديمية الأفلاطونية ، التي تم تأسيسها على يد ميديشي Medici في فلورنسا أو أثالجديدة ، أيقظت شمس الفلسفة والبناء الفكري اليونانيتان أوروبا من رقدة الشتاء . . . ومن هذا المكان ، أسرعت هذه بحركة الفكر المرافق المسافر إلى سائر أجزاء القارة . هنا في إيطاليا ، تم الكشف عن العالم والإنسان ، وهنا اكتمل الشعور بالتحرر ، بعيداً عن هيمنة السلطات الفلسفية باتجاه الأنبلاج الكامل للطبيعة المكتشفة الآن . وهنا أيضاً نشأ العلم التطبيقي المبني على التجربة وبدأ مسيرتهُ المظفرة حتى وقتنا الحاضر . فهل هذه الصورة حقيقية حقاً ؟ !

ولدى إلقاء نظرة فاحصة ، يتبين لنا بأن نهضة إيطاليا ضمن هذا التصور ظلت مقتصرة على إيطاليا ، وأن الشيء المزدهر في إيطاليا ، لم تنفصم جذوره عن التقاليد الرومانية أبداً . إن الفكر اليوناني الأوسطي القديم الذي أعاد تكوين فكر العالم الروماني في الأمبراطورية الرومانية ، إلتقى بفكر العلماء في القسطنطينية ، أولئك الذين كان لهم مدرستهم العلمية المستقلة في القرن ١٥ مجدداً عند إرث مشترك ، قديم الصلة ، وفي أوساط ثقافية كانت مؤهلة لاعتناق صيغه وأشكاله وللسماح بالأخذ عنها بالنظر لما تتمتع به من نفوذ . فما اعتُقد وفُهم على أنه إحياء للأفلاطونية ، شق طريقه في واقع الأمر على يدCicero ، اللامع ذائع الصيت ، والافلاطونية الحديثة لأفلوطين المتحرر ذي أصل مصري ، إلى المدرسة الفلسفية عبر دورة بعيدة ، أكثر مما شهدها بواسطة أفلاطون ذاته . وهذان الرجلان على اختلافهما الشديد ، إنما سكبا في إنائهما ما كانا يوزعانه من فكر أفلاطوني . ولقد احتل الوعاء الروماني القديم منزلة الصدارة في عملية تزيين حياتية وحضارة حافلة بالفكر . على أن من دواعي دهشتنا ، ما تلقيناه من اعتراف مفاجيء جاء على لسان عدد كبير من العقول الرائدة للوثبة الحضارية الحديثة في إيطاليا ، بأن الأفكار الحاسمة إنما سالت اليهم عبر قنوات فلسفية ألمانية . أجل ، إنهم لا يترددون بالإعتراف وبحماس ، بفلاسفة ألمان من أمثال كريسKues الذي احتل أعلى المناصب لدى الكنيسة ، وإلى اعتبار كويسانوسCusanus ، بمثابة أستاذ لهم ، وبالتالي إنهم

وريثون لتيارات فكرية أوروبية أخرى .

وبالمقابل فإنه لم تفد عبر جبال الألب باتجاه الشمال سوى بعض العناصر الشكلية المحدودة في القوالب والمفاهيم والأساليب . زينت على أية حال واجهات الأوساط الشعبية وأفكارها ، هذا في الوقت الذي واصلت فيه الحياة نموها المطرد من وراء ستار الزينة . وبالترجمة العقيمة لقدماء اليونان ، قلما هبت ريح تحررية على صالونات الفلاسفة الإنسانيين، الذين أفلتت منهم السلطة اللاهوتية السابقة وفلسفتها البالية حول حقيقة الحياة في عالم الحكمة عند الأقدمين . عندها استبدلوا النظريات الجامدة السائدة في ذلك الحين بأخرى حديثة فقط ، لكنها نظريات أثرت تأثيراً أقل مما كان يتطلبه التطور الجديد بكثير .

وحرية الفكر المزعومة الجديدة للنهضة الحديثة ، سرعان ما أفلت في المجتمعات التي تعتنق الخرافات وتسيطر على ذهنياتها بعض المعتقدات . ولعل أكبر منجزات القائلين بالمذهب الإنساني ، الذين عكفوا على ترجمة المصادر اليونانية الآن ، إنصبت على ميادين المعرفة اللغوية . وقد دقق الباحثون النظر في قيمة النص الفنية ، ولم يمعنوا النظر في المضمون . ذلك أن عدداً كبيراً من الأعمال اليونانية والإغريقية لـ: أيوكيد ، جالينوس وبطليموس ، وغيرهم ، والتي أصبحت الآن سهلة المنال من لدن متعلمي بيزانطة ، تقادمت في تفاصيلها ، بل وتم تجاوز بعضها من قبل العرب الذين أمسكوا بزمام التراث اليوناني على مدى مئات السنين وواصلوا السير فيه وتعدوه ،أجل من هناك كان البدء ، وانتهى بالأوروبيين الذين اقتفوا أثر العرب كما سنرى . غير أن علم ما وراء الطبيعة خلال هذه الفترة لم يتلق من النهضة الحديثة والإنسانية مستجدات هامة تتصف بالعمق . إن تياراً فكرياً شديداً واصل اندفاعه تحت السطح ، من الينابيع التي تفجرت في أوروبا في القرن التاسع وظهرت قوية في التصوف . ذلك أن أوروبا عاشت ـ وهو ما لم تكن لتذعن له في المراحل التاريخية المعتادة ـ عاشت قروناً طويلة قبل عصر النهضة ذاك ، نهضة أبعد أثراً ومدى في كثير من المناحي ، التي وضعتها لها طرق التحويل للقرن المقبل ، والتي

لا بد وأن النهضة الإيطالية الحديثة استفادت منها بقوة . ميلاد جديد أثر في أوروبا والعالم لمدة أطول ، وأكثر عمقاً مما اتفقنا على تسميته بالنهضة والإنسانية .

وعلى النقيض الصارخ للقوى الفكرية السائدة ـ الكنيسة والفلسفة ـ وتحدياً لهما ، وهما اللتان رعتا الفكر الأوروبي وضغطتاه بين ثفالي الرحى ، فقد بدأ في القرن التاسع إنقلاب عملت على استدراجه الشخصيات وبعض المراكز الفكرية في غرب أوروبا خلال القرون ١٢ ، ١٣ ، و ١٤ . وهو فكر جديد شد إليه الأنظار في رفض قاطع موجه ضد السلطات التي تدعي لنفسها كل الحقيقة أياً كانت صفتها : ضد الإنجيل ، الآباء الروحيين وأساتذة الكنيسة ، وضد الأفلاطونية الجديدة ، والأفلاطونيين المسيحيين الجدد ، وضد أكبر صنم لسائر الفلاسفة ، أرسطو ، : فكر جديد ذو جذور ضاربة القدم ، تحرر من نماذج التفكير الغربية المستحدثة ، وميلاد ثان وجديد للفكر الأوروبي العريق .

« في أوروبا ، بدأت بومة (المينرفا) أول طيران لها في الغسق »[1] . ذلك ما أثبته هيجل ، ملتمساً العذر لتخلف أوروبا العلمي . والحقيقة ـ كما سنرى ـ فإن أول خفقة جناح لها ، كان في وضح النهار .

وقبل أن ندلف إلى الأماكن التي ولد فيها العلم التطبيقي الأوروبي ، ينبغي أن نضرب في الأدغال أولا ، وأن نتأمل الموانع التي أعاقت عملية الفقس وأوائل خفق الأجنحة ذاك طوال هذا الوقت . بحيث نلتمس عذراً لمسيرة عطش مجدبة ، وإلى أن يتاح للحادثة المنتظرة الشروع أمام ناظرينا .

«إعاقة العلوم الطبيعية »
الموقف المسيحي من الطبيعة والبحث العلمي

قبل أن يتمكن الفكر الأوروبي من الإعتماد على نفسه بالتطور الذاتي المطرد ، . رسمت له القيم والمفاهيم الكونية الدينية الوافدة من الشرق ،

---

(١) نسبة إلى رئيس أساقفة باريس في النصف الثاني من القرن الثالث ألمسمى Dionysius ، وعنه الأفلاطونية الجديدة ، والأفلاطون المسيحي الجديد Pseudo —Dionysmus .

المسارات التي ينبغي أن يتحرك فيها بعناية . وقد جاء أن الإيمان (العقيدة) ، هو الحق الوحيد ، الجامع البسيط المترتب على عاتق الإنسان . كما وصف الأب الروحي ـ تيرتوليان فضول العقل بأنه إثم ، فضول فاحش .

والإيمان ! هو الشيء الذي منح الإحساس بالأمن وسط كل أنواع اللاأمن في أوساط المضطربين ، وبدل الوحشة بالأنس ، والخوف من النهاية بالمعاناة من الوجود . لقد قدّم اليقين بالخلاص رغم انقطاع الرجاء في عالم جاحد ، مفتن ، مذنب ، ضائع . والإيمان كذلك : هو أن لا ترتاب وأن لا تسأل .

أوليست الشهوة ، وهي الأكل من شجرة المعرفة ، بقصد الإرتقاء إلى مستوى الله ، هي الخطيئة التي هبطت بالإنسان إلى الأرض ؟ فمنذ خطيئته الأولى في الجنة ، حظر الإنسان على نفسه بعدها أن يدعي معرفة ليست من حقه ـ ذلك المذنب ـ ! وكان حرياً به أن يسعى إلى النجاة بروحهِ بدل أن ينحرف بالرغبة الجامحة الخاطئة في معرفة المزيد .

أولم يصنف الله المعرفة في الدنيا بأنها غرور ؟ ونهى بولس الرسول عن أي نوع من أنواع البحث عن الحقيقة في هذا العالم ؟ . لقد جاء : «سأبدد حكمة الحكماء وأنبذ معرفة العارفين» ـ ما يبدو في العالم على أنه سخف ، إختاره الله ، كي يشهر به الحكماء .

فإلى جانب الطريق الوحيدة التي تزكي الروح ، كان ثمة طريق أخرى خاطئة ملحدة ، أي البحث عن الحقيقة في مكان آخر غير ما أوحي به من السماء ، حجج سوف تغرق اكتشاف الطبيعة في التخلف والنقمة . ذلك أنه بعد ظهور السيد المسيح ، لم يعد من مهمتنا ـ كما أوضح تيرتوليان بجلاء ، لأولئك الذين لا يريدون أن يكتفوا ـ فشدهم الفضول إلى البحث ، بعدما تنزل الإنجيل . ليس العقل البشري وحده ، إنما الوحي الإلهي هو القادر على إضاءة الروح .

لقد قالوا : إن استعمال قوى العقل البشري في الكشف عن الطبيعة وأسرارها ، بدلا من تسخيرها في خدمة الأديان السماوية هو سوء استعمال لها ،

لتلك القوى ، . لقد اعترف هوميروس ، بعد صراع طويل مع نفسه وبندم شديد ، أنه طرح جانبا محاولة الغوص في الحكمة اللاروحية لكتابات الوثنية ، حيث قال : « أيها السيد ، لو عدت إلى قراءة تلك الكتب الأرضية مرة أخرى ، فإنما أنكر بذلك وجودك ! » . لأنّه لو تسنى التعرف على الحقيقة عن طريق تلك الدراسة ، المتداولة ، لوجب إذاً العثور عليها . وحيث أن ذلك لم يحدث ، رغم الوقت والجهد الكبيرين اللذين بذلا في هذا الصدد ، فمن الواضح إذاً أنه ليس ثمة حقيقة ! كما قدّر المعلم الروحي لاكتانيوس .

لقد قدم الإنجيل والآباء الروحيون منذ زمن بعيد معلومات عن كيفية بناء العالم : الأرض والسماء ليستا كرويتين (مستديرتين) ، فإن لها شكل زوايا الخيمة المقدسة . في الكتاب المقدس (الإصحاح ٢٢)، بأن الرّب أسدل السماء كما تسدل الستار ، ونشرها كما تنشر الخيمة كي يصار إلى السكن فيها . » وهذه الخيمة السقف مغطاة بالماء طبقاً لما جاء في التكوين ، ألإصحاح الأول ٦٧ . وقال الرب : ولتكن سترةٌ بين المياه . وخلق الرّب السترة وفصل الماء تحت السترة من الماء فوق . . » . وسطح الأرض حاد الزاوية ، مائل من الشرق نحو الغرب . فحسبما جاء على لسان الواعظ شالومو ، فإن الشمس (تغرب) وتسرع نحو المكان الذي أشرقت منه . وبحيث أن بعض الأنهار تنحدر من الجبال ، وبعضها يصعد نحو القمم . وبالنسبة للبعض فإن الكرة الأرضية هضبة وبالنسبة للبعض الآخر من أمثال هرابانوس مادروس ، أسقف مدينة مانيز في حوالي عام ٨٥٠ ، هي قطعة على شكل إيطار شطفت بماء المحيط، لكن ليس لها شكل الكرة على الإطلاق . لذا فقد قرر الأب الروحي أوغسطين «بأنه لا يمكن أن يكون لها وجود[1] ، لأن الكتاب المقدس، لم يشر إلى جنس من هذا النوع في سلالة آدم » ، وبذلك حسم التأكيد الوثني القائل بكروية الأرض ـ هل من الممكن ـ يتساءل الأستاذ الروحي لاكتانيوس أن يكون

---

(١) Antipoden : لا وجود لهم ، أناس آخرون يسكنون الأرض مضادون لنا بأقدامهم لأن الأرض كروية ؟ ! والأب أوغسطين ـ هو كاثوليكي ، أحد الروحيين البارزين عاش في شمال أفريقيا في القرن الثالث (٣٥٤) وتوفي عام ٤٣٠ .

الإنسان على هذا القدر من الضحالة بحيث يعتقد أن البذار والأشجار تتدلى على الجانب الآخر من الأرض ، وأن تكون أقدام الناس أعلى من رؤوسهم ؟ مئات السنين من نضج البشر العقلي،كالذي بدا في اليونان ومراكز الفكر الإغريقية، أزاحه مثل هذا التفكير ، لتعود النظرة الساذجة والتفكير السحري في الأرض .

هل أرادت القوى الروحية في تسليمها المتحمس للهدف الأعلى من المعرفة الإلهية حب الظهور ؟ وربما أرادت إنضواء مؤسسات تعليمية فلسفية صارمة تحت سقف اللاهوت الذي به ارتبط كل شيء ، شامخة ـ ككنائسهم ـ في ظلها ، الهندسة الطامحة للسماء ، وفي جميع مراكز المعرفة حول الأرض وكما هو أرضي أغرقت مستوى المعرفة ، وكما أراد أوغسطين : نشأ بدافع الفضول المريض ، مجرد النزعة إلى التجربة والإبتكار ، وبها ظهرت إحدى أخطر صيغ التجربة ؟ .

● أينما وضعت المسيحية قدمها . في الإسكندرية وبيزنطة ، في اليونان وروما ، في فرنسا وبريطانيا ، أدت إلى تقلص مروع في الثقافة . في هذا الوقت بالذات ، أخذت حضارة الأمبراطورية الرومانية المتدهورة ، منذ هانيبال وتحت حكم تيودوريك ، العادل الحكيم ، بالصعود التدريجي وبلا سابق مقدمات ، للخروج من الوادي السحيق الذي تردت فيه ، وأخذت القيم الحضارية مجراها من جديد . ولقي المتعلمون الإحترام ثانية ، ولقوا التشجيع من قبل الدولة . وأعيد فتح مدارس الأيتام الملكية ، وصدر الأمر بالتوسع فيها . وفي محاضرات مفتوحة ، وفي ظل حكومته المتسامحة ، جرى تعليم مؤلفات هيبوقراط وجالينوس، وانضم المثقفون القوط كأطباء طالبين للعلم. وزاولوا الفيزياء والفلك، واستمرت النهضة الفكرية حتى بعد موت تيودريك . وبعد فترة النقاهة تلك والنمو الملحوظ ، لاح في الأفق ما يشبه الوعد بمستقبل له ، وعد بما كان قابلاً أن يكون . فهل كان لمثل هذه الآمال العراض أن تظهر ، لولا وجود حتى قدر كبير من الميل متخفياً في البذور ؟

والفاندال أيضا ـ إلى جانب الرومان ـ احتضنوا المنابر البلاغية والمدارس

النحوية . ولقد كان بينهم الكونت سيجتوس ، داعية للفن الشعري وشاعراً أيضاً . ونفس الشيء بالنسبة لملك الفرنجة شلبريش ، الذي نظم قصائد ونبذاً حول الإخفاق في الدفاع عن فكرة [1] الثالوث . فيها يتعرض لقضية تصور الرّب كشخص .

لقد شرع الجرمان ، حيثما تواجدوا ، في تبني الثقافة الأدبية اللاتينية . وسواء لدى القوط الغربيين ، أو لدى الفرنجة ، فقد وجد في الأوساط الحاكمة والإدارية ، بل والتجارية أيضا ، متتلمذون غير متخصصين ، عرفوا بالكتابة والقراءة والحساب والقانون . ولقد تحركت همّة المعلم تحركاً كبيراً تحت حكم اللانجوباردين ، الذين لحقوا بركب السابقين في التحرر من سلطة الكنيسة ، وما لبثوا أن قاموا بدور الناقل لعلوم الغرب المبكرة .

وفي سائر أنحاء الأمبراطورية الرومانية ، حاول الأمراء الجرمان ، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم ، تيودريك الكبير ، إحياء التراث الوثني القديم ، ذات الشيء الذي فعله الخلفاء العرب خلال القرن الثاني . لكن الأمبراطورية الرومانية ، في ذلك الحين ، كانت قد تحولت إلى أمبراطورية مسيحية . كما أن الأمبراطور الروماني الإفريقي أوغسطين ، الذي كان السباق ، واحتل المنزلة الفكرية المطلقة ، هو الذي أذن بالفكر في الغرب . وروما الفكر ، حددت من الآن وصاعداً ، الوجهة التي ينبغي أن ترسل إليها بشرية في كل أرجاء المعمورة . وفي فرنسا حيث وجد سيدونيوس آبوليناريس حياة ثقافية نشطة نشطة بانتظاره ، وهام في حب رسائله التي كتبها عن النجابة الملكية ، الفرنسي أوبانيتوس من القرن الخامس ، تفجرت كذلك في بريطانيا ، وبعد مقابلة إرسالية الكنيسة ، الثقافة الهلينية ، اللغة اليونانية والإجتماعيات الرومانية المألوفة على مسرح الحياة . وقد حاولت روما الروحية إقصاء عناصر التراث الوثني هذه بالذات ، والقضاء على أولئك الذين تلقفوا تلك الثقافة . وقد اعتبر

---

(١) - أي الإتحاد الثلاثي الله - الإبن - الروح القدس .

القديس هيروتيموس الفكر اليوناني لعنة على البشر ، فترجم الإنجيل إلى اللاتينية ، بحيث قلبت «الفولجاتا »[1]Vulgata ، كلاً من هوميروس وفيرجيل رأساً على عقب .

وليس ثمة ما يجعل (سلامة النية هذه) أكثر جلاء وإثارة من الحرائق المدمرة ، وأعمدة الدخان المتصاعدة فوق الاسكندرية ، كنز المعرفة اليونانية والهيلينة على مدى مئات السنين . الآن جنباً إلى جنب مع روما ، المقرّ الرئيسي للكنيسة المسيحية .

إن السماء تصطبغ باللون الأحمر فوق عاصمة المعرفة على دلتا النيل . هذا في الوقت الذي تتهاوى فيه دُرر لا تعوض من الأشعار والفلسفة اليونانية والعلوم الإغريقية ضحية لعمليات إبادة من تدبير التعصب المسيحي . إن إحراق مكتبة الإسكندرية الكبرى ، والذي يصرون بعناد تحميل العرب مسؤوليته ، رغم أنهم فتحوا المدينة بعد انقضاء أربعة قرون على ذلك الحدث ، كدليل على بربرية مزعومة تحركها شهوة الإنتقام بالتدمير ، قد دلّ ـ هذا الحريق ـ على أنه ـ بعد دراسة وافية ـ هو من أعمال الإبادة المسيحية ، فضلاً على أنه دعاية موجهة ضد الإسلام .

وفي عام ٤٧ قبل الميلاد ، وفي أثناء مرابطة يوليوس قيصر ، قدمت ٧٠٠ لفافة من كتب مكتبة الإسكندرية طعماً للنيران . لكنه في القرن الثالث ، وضعت خطط التدمير المنتظمة . فقد قام بطريرك مسيحي بإغلاق المجمع العلمي وطارد أعضاءه . وفي عهد الأمبراطور البيزنطي فالنوس عام ٣٦٦ ، تم استبدال المجمع العلمي بكنيسة ، ونهبت مكتبته وبددتها . وتعقبوا فلاسفتها تحت غطاء وبتهمة السحر والشعوذة . وفي عام ٣٩١ ، إستصدر البطريرك تيوفيلوس إذنا من القيصر تيودوسيوس يقضي بتدمير أكبر وآخر محج للعالم القديم ، وهي أكاديمية الإسكندرية الكبرى (ـ السيرابيون ـ) .

---

(١) Vulgata : ألترجمة اللاتينة للكتاب المقدس لهيرونيموس ـ١٥٤٦ ـ

السيرابيون ـ وبتقديم ٣٠٠ لفافة طعما للنيران . وبذلك تعرضت البشرية لأفدح خسارة في تاريخها ، ولأبشع مأساة فكرية وإلى الأبد . وبذلك العمل لم تنته أعمال الدمار من جانب المسيحيين المتعصبين. فها هم أولاء صعاليك ذلك العصر (الزمان) كالمنتشين بالشراب يداهمون ويخربون . إن صديق البطريرك سيفيروس ـ آنيوشين يعترف دونما خجل بأنها ـ الصديقين ـ وكانا عضوين عاملين في مجموعة إرهابية مسيحية في الإسكندرية ـ قاما في القرن الخامس بمحاربة العلماء الوثنيين وبمهاجمة دور الثقافة ، وإنهالوا ضرباً على صور آلهتهم ، ودمروا مكتباتهم ومنشآتهم واختفى بذلك ملاذ إثر آخر من معاقل العلم الهيليني .

وفي عام ٥٢٩ ، تم إغلاق آخر مدرسة فلسفية في أثينا . وفي عام ٦٠٠ أحرقت مكتبة بالاتين التي أنشئت في روما من قبل أوغوسطوس ، ومنع تداول المؤلفات الكلاسيكية عامة ، والرياضيات بصفة خاصة . أما باقي المؤلفات القديمة الخاصة بالبناء ، فقد خفض سعرها تخفيضا مزريا مهيناً .

إن المعرفة الروحية المسيحية، تبعاً لطبيعتها، توجهت نحو أهداف مختلفة تماماً ، لهذا السبب ، لا أكثر ولا أقل . لقد رسم الأب الروحي أوغسطين في منتصف القرن الخامس قطبي المعرفة بقوله : « أتمنى أن أتعرف على الله والروح » . هذا في الوقت الذي كان يوبخ فيه البشر الغارقين عمداً بخطيئتهم المتوارثة المتمثلة في الطمع الزائل للتطلع نحو المعرفة من أجل المعرفة . وبعد ٨٠٠ سنة من ذلك التاريخ ، شكك توماس فون اكوين في كل محاولة للبحث عن الحقيقة المعنية بالأشياء السفلى . إتهمهم بالخطيئة وبالمروق عن الدين . . وفي التفكر بالحقيقة ، أي الله ، يكمن في نظر معلمي الكنيسة وأمراء الفلسفة ، الهدف الأسمى والوحيد لبني البشر . بها يتقرب المرء من الله والملائكة ، ولبلوغها لا حاجة به إلى أي عون خارجي . وبغير هوادة معتادة ، يعرب لأوروبا ، لتعاملها بالعلم ، وبحثها عن المعرفة بنية حسنة : «إن أدنى قدر من المعرفة ، التي يمكن لأحد أن يعرفها عن الأشياء السامية ، هي أجدر بالمعرفة من

معرفة محددة بالأشياء الدنيا » . وهكذا يضيق الحد الفاصل بين الأشياء السامية والأشياء الوضيعة التي مرغت في مستنقع المعجزات والخرافات ، والتي لا نملك حتى يومنا هذا تصوراً لحدودها .

لقد أعدوا للشعب البسيط النائي في معتقده عن التأمل الإلهي ، أساطير مقدسة مقتبسة من الخرافات اليونانية الرومانية والشرقية القديمة ، سرعان ما تترعرع فيها العقيدة الدخيلة على حساب التأمل السليم . وهكذا ، فإنه حين ينقل إلينا من القرون الوسطى بلغة مترجمة إلى الألمانية مثلا خبر مرغوب القراءة ومستحب حول طبيعة الأسود النمال ، ذات البنية الفخمة نفهم : «أن حيواناً يولد من النملة والأسد ، يطلق عليه إسم الأسد ـ النملة ، وان هذا الحيوان سرعان ما ينفق فور ولادته لأنه لا يستطيع تأمين الغذاء ، والسبب ، لأنه مكون من طبيعتين ـ فحين يرغب في ازدراد اللحم ، تتراجع طبيعة النملة التي تتفتح شهيتها للحبوب ، فإذا أراد أن يتغذى على الحبوب ، قاومته طبيعة الأسد . وهكذا ، فحيث أنه لا يستطيع أكل اللحم ولا الحبوب ، فإنه يموت . مثلُ هؤلاء مَثل أولئك الذين يريدون الإمتثال لأمر سيدين ، الله والشيطان . ففي الوقت الذي يعلمهم الله أن يتطهروا ، يوسوس لهم الشيطان لأن يكونوا فاجرين .

إنه بمجرد التفكير بالله ، وبالروح ، يكون الإنسان قد أقر للطبيعة بمعنى ، كانتماء إلى ما يسمو على الإدراك ، كرمز مفضل ، للربط بالخُلُق . ولكن ليس بحال من الأحوال من أجل إرادتهم الخاصة .

وكتب ضارب المثل يقول : الأرنب عدّاء جيد . حين يطارد يفر في الأرض الصخرية والجبال الشاهقة . وبعدئذ تصبح الكلاب كلها مجهدة في نظر الصياد ، وليس لها القدرة على اصطياده . لكن الأرنب حين يتجه إلى أرض منحدرة ، لا يستطيع الجري على ما يرام ، لأن ساقيه الأماميتين مقيدتان . وفي لمح البصر ينقض عليه الكلب ، وهذا حالك أيضاً أيها الإنسان .

تطاردك القوى المعادية من أجل الصياد ، الشيطان . إبحث عن الصخر والمرتفعات التي قال عنها داوود : أرفع عيني نحو الجبال التي يأتيني منها المدد ، لأن الشرير حين يرى الإنسان ينظر إلى أسفل ، وقلبه مشدود إلى الأرض ، فإنه لا يدنو منه إلا ليكون أكثر قرباً بأحابيله . لكنه حين يرى أن المرء يسير حسب مشيئة ربه باحثاً عن الصخر ، حينئذ ينصرف الشرير إلى شأنه .

موقف الأفلاطونية ـ والافلاطونية الحديثة من الطبيعة والبحث العلمي .

على أنه ، ليس الديانة المسيحية وتوجهها إلى الله ، أو تطهير الروح البشرية الوارثة للخطيئة ، هما الوحيدتين اللتين صاغتا الفكر في مطلع القرون الوسطى ، بل اللاهوت المسيحي في صورته التي قدم بها من قبل شخصيتين هما : بويثيوس (٤٨٠ ـ٥٢٤) ، رجل الدولة والفيلسوف ، صديق الملك تيودريك ، الذي أعدم بتهمة التحريض في بافيا عام ٥٢٤ ، ووجد السلوى أثناء سجنه الطويل في الفلسفة المصبوغة بالصبغة الأفلاطونية الجديدة . والشخصية الأخرى ، هو أوغسطينوس (٣٥٤ ـ٤٣٠) ، المعلم وصاحب النفوذ في الكنيسة الكاثوليكية الذي ينحدر من أصل أفريقي[1] هذا الأفريقي ، تلقف كل التيارات الفلسفية ، الهيلنية الصادرة عنه ، وفي حركة مضادة له ، الوافدة من الشرق ، المختلطة بها التي غمرت حوض البحر المتوسط ، والتحمت في حركات جديدة أثناء شبابه . وبنفس الحماس الذي دعا به أوغسطين للتعاليم المتطرفة والديانة المانوشوسية[1] ، اللتين بشرتا بحتمية الخصومة بين الثنائي ، الخير والشر ، ومن ثم ـ وقد خاب ظنه ـ وصفه المتشكك لكل ذلك بعد تسع سنوات ، إنغمس في وطيس الأفلاطونية الجديدة ، حتى حوله بولس إلى النصرانية التي ما لبث أن صهر في فلسفتها من كل شيء شيئاً قليلاً .

لكن الأسر الصارم كان سواء للإثنين معاً ـ بويثيوس وأوغسطين ـ في

---

(١) من قسطنطينة بالجزائر .
(٢) ألمانوية .

الأفلاطونية الجديدة التي قدرت على طبع وعي أوروبا المسيحية بملامحها الغريبة في الفترة الممتدة بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر .

وهو أيضاً ، عمل من جانبه على إعداد خليط من التعاليم الأفلاطونية ، الارسطوطاليسية ، الأرسطوطاليسية ، والقيثاغورسية ، ضفرها بتعاليم يهودية وأفكار مسيحية في صنيعة معتقد غير قابل للإنفصام تقريباً . ولقد أفلح في ذلك كما لم تفلح الثنائية[1] الصارمة التي كانت قاسماً بينهم . فقد وضع أنموذجاً من جزأين فوق كل الوجود ، وهو الذي قسم إلى إثنين ، جزأين مختلفين في القيمة والمستوى ، في حيّز القدسية والنور والخير ، وحيّز الخطيئة والظلام والشر .

إن فلسفة الإنحطاط هذه لعالم البحر المتوسط ، المتوقد شوقاً إلى الخلاص من ظلمة المادة ، ظهرت باسم أفلاطون (٣٤٧-٤٢٧) قبل الميلاد . وذات الشخص الذي عاش في فترة الانحطاط التي دبت في كيان الدولة اليونانية القديمة ، كان هو نفسه الذي أضفى على الفكر المزدوج ذلك التعليل الغيبي العميق ، وهو من طرز التفكير البعيدة كل البعد عن أنماط تفكيرنا ، وهو ما يؤكد دوماً التدنيس لروحه المقدسة .

ونمط التفكير هذا ، يبدو لدى أفلاطون على النحو التالي : أنه يفرق ما بين الوجود الصادق ، وهو الدائم الذي ليس له ما بعده ، وبين ما هو صائر ولكن لا وجود له أبداً .

إنّ مملكة الفكر ، المضيئة الرحبة ، المنتظمة ، الأبدية التسامي هي الحقيقية بالنسب إليه ـ والمملكة الأخرى ، ذات الحركة الدائمة ، الخاضعة للصيرورة والتحول ، المادية ، المتعارضة مع الله لا وجود لها قطعاً ، بلا حقيقة .

والمادة تحظى بنصيب من الوجود أولا ، وبطريق واحدة فقط ، حين تتمثل

---

(١)Dualismus فكرة الخير والشر اللذين لا يلتقيان .

الأفكار دون أن ترضخ لها تماماً ،حتى لو عارضت طموحها . وهكذا ، فإنها تصبح بحق خليطاً من الكائن وغير الكائن ، من الظاهر والموجود ، من العقل والإدراك والإلزام . لكنها كخليط ، تظل غير نقمة ، مبتورة ، ناقصة ، مآلها إلى الزوال ، نصف حقيقة ، مشابهة للظل . إن هوة سابقة تفصل ما بين عالم الفكر والمظهر ـ وبروح الإنسان التي جزءُها السفلي مظلم وفان ، وجزءُها العلوي خالد ، وبين الجانب الأخروي من الفكر ، روح إلهية ساكنة .

وتحت تأثير الاستخفاف الشرقي الصارخ بالإنسان ، بالجسد ، والطبيعة ، فالعلاقة بين الجسد والروح تبدو على نفس صورتها لدى أسلاف أفلاطون ـ الفيثاغوروثيين ـ كسجن للروح المتداعية من مملكة الأفكار المجردة ـ كسبب خلف كل الشرور ، المترامية على الشهوة ، وكمعوق لكل معرفة . وأفلاطون يتوج قوله ، حين يعلن في آخر عمل له وهو القانون : بأن قمة الشرور لديه ، تتأتى من غريزة مريضة . وهذه الغريزة محصلة لجرائر قديمة ، تنامت في الإنسان . ويستدرك : إنها القطرة الشرقية ـ الغربية في الدم اليونانية .

إن التفريق الحاد لهذا النمط من التفكير الأفلاطوني المزدوج ، ما بين الوجود الصادق الكاذب ، مجرد مادة شديدة التبدي ، هذا التفكير لم يكن مقتصراً على أفلاطون وحده . إنها ترمز إلى بناء فكري خاص لتراث اليابسة اليونانية الأوسطية ـ خلافاً للتراث الإغريقي ـ اليوناني ، الذي زحف مع الهجرة الهندية ـ الجرمانية حتى الأشرطة الساحلية لآسيا الصغرى ، والذي يعرف لدينا بإسم فورزوكراتيكر Vorsokratiker وفي عصري بارمندس، حوالي ٥٤٠ ق. م، وهيراقليط ، حوالي (٤٨٣ ـ٥٤٤) ، وجد هذان النمطان الفكريان اليونانيان المختلفان جوهرياً ، وجداً ممثليهم القدامى .وقد تجلى ذلك في نظرتهم إلى الطبيعة ، التي اختلفت إزاءها العقول ، طالما أن الفكر اليوناني كان على قيد الحياة بعد . وحيث أن أسلوب التفكير الذي عُبر عنه فلسفياً على لسان بارمنيدس وأفلاطون ، قد زاول تأثيره في أوروبا ، وكان من حيث نظرته إلى الطبيعة داعياً أو مثبطاً ، فإن من المفيد مساءلته وبالتفصيل عن طبيعة معايشته وفهمه للعالم .

لقد كان تفكير بارمينيدس مماثلا لتفكير كل من أفلاطون وفيثاغورث ، لكنه من نمط خاص جداً[1] . أن طبيعة العالم لدى هؤلاء اليونان أنه Kosmos ، كون ، ومعناه النظام . والمقصود بها هنا أساساً : نظام يحيط به البصر ، أي نظام الكائنات المحاطة بحدود واضحة .

وفي شعره ، يبذل بيرماندیس جهداً لا نظير له ، لكشف النقاب عن أن كل تبدل وتحول في الطبيعة ، كما يبدو للحواس ، لا يعدو كونه نفياً للوجود ومجرد شيء صوري .

ومن الواجب هنا ، أن لا نتجاهل منطلقات هذا التفكير ، الذي كان له تأثيره الشديد على الفكر الأوروبي هنا وهناك .

ولرؤ ية الحقيقة هذه أسبابها العميقة في طبيعة ومعايشة الأرسطيين . فما يجثم على صدورهم ، وما يطبع كل تفكيرهم ، إن هو إلا الشك الدفين إزاء اللا محقق، غير الواضح، عديم الهيئة. أجل! النفور المتأصل العميق من كل ما هو قاسٍ ، موحش وقبيح في الطبيعة . البشر الذين ملأهم بالجور تحت رحمة التعسف والشهوة . وهذا هو الرعب الذي لا حول فيه أمام كل ما هو مجهول ، جارٍ ، أبدي التجول ، الذي لا يمكن تجاهله ، الذي ينفح فيه ريح الفناء والموت ـ هذا هو التقزز من الأحاسيس الجامحة ، والرغبات الصانعة للقبح ، التي يخشى معها الإفلات من موقعه الثابت في المجتمع ، وكذلك الخوف المثير للمغالطة مما هو غير محدود ، لا نهائي ، الذي يرهبه بالفراغ الهائل ، المخيف ، المفزع لأن يفقد ذاته . تلك هي الرغبة، في الأحيان التي تضمن له الوضوح والإنضباط فقط ، والتي لا سبيل إليها إلا بالإدراك الواقعي الثاقب . لا سبيل إلى نجاته من القوة التي ترهبه وتستدرجه إلا بالعقل . وبه أيضاً يتفادى الأخيلة المتحركة المذنّبة التي يتعذر لجمها ، التي تحوم فوقه ،وتقهر حواسه ، وتملأه بالخشية من الوحدة .

---

(١) بارمنيدس ، فيلسوف يوناني من إيليا حوالي ٥٤٠ قبل الميلاد .

(٢) صرفنا النظر عن النص الشعري المستدل به لأسباب تتعلق برونق الإيقاع وعدم الإخلال بمعنى النص .

ذلك فقط ، هو الذي يبدو في نظر الإنسان اليوناني هذا ، خيراً وجميلاً وكاملاً . ما ـ بأربطة الحدود ـ يتماسك ويُدرك بصيغة ثابتة ، بطريق الوضوح الشامل ، النظام والقاعدة .

هذا فقط ، ما يبدو له كريماً وبالفضيلة مفعماً ، ما يتحقق بالصبر والتبصر ، وبالاعتدال بين الإفراط والتفريط . لأن النظام الحق والتوازن ـ كما يقول بيثاغورس ـ جميلان ومفيدان ، في حين أن انعدام القاعدة والإفتقار إلى التوازن من جهة أخرى رديئين وغير نافعين .

إن الحقيقة المشبعة بالفطرة ، المطردة النمو بلا تدخل خارجي ، تقلقهُ . وقوى الأرض المظلمة وعناصرها غير المتّحدة تكدر مخيلته وتجلب لها الخوف .

وبقدر ما حركت الطبيعة حكماء الإغريق ، بدءاً بتالس وانتهاء بهيرا قليط ، كان تفاعل أفلاطون معها ضعيفاً وجاء في سن متأخرة . والفلاسفة الثلاث متفقون على ذلك تقريباً ، إن الحواس لا تقدر على تمييز (معرفة) الوجود الصادق ـ لأنها ـ الحواس ـ تخدع الإنسان ، إنها لا تدرك غير الظاهر ، الشيء المتقلبة في تياره على الدوام ، مما كان ، عبر ما هو كائن ، فيما يؤول إليه . إنها مصدر المعرفة الضبابية غير الصافية . ونفس النقص الذي يلازم المعرفة الحسية البشرية ، يلتصق بعالم الظاهر المضطرب ، المتعدد ، المتلون ، المتداخل ، الهائج النامي ، المتحرك ، المنتظم والمضطرب ، دائم التغير ، فظيعة العفونة . في «المادة » !

ومن خلال اكتشاف عالم المادة والطبيعة ، لا يتسنى الحصول على المعرفة . ان التعرف الفعلي على أي شيء لا يتم إلا حين يغادر الانسان الجسد . لأن الاتحاد بالجسد لا يسمح للروح بالعثور على المعرفة .

إن التفكير الواقعي وحده ، هو الذي يحيط بالوجود الفعلي . ولا يبرز الكائن من المبهم، المتغير سوى التفكير المنظم المحدد، المعرف، المفهوم. وهو في تحديده وثباته ، يقترب من الحقيقة : « كما لو كان غير قابل للتصديق من

قبلنا ، بل مجرد كائنات تدعو إلى التأمل . وفي حوار تيمايوس[1] هنا ، يقدم أفلاطون الحيز الفاصل بين التفكير الأصيل ، واليقين المبتور بالطبيعة ، الذي عرقل تقدم العلم التطبيقي الأوروبي بشكل صارخ . أجل ، وحيث أن الروح لا تفنى ، وانها رأت كل الأفكار ، فإن كل البحث والتجربة والتعلم ، مجرد ذكرى . وأنَّ الحس ، التصديق بالحس ، هو الذي يثنيهم عنها . لذا فإنه لدى التعرف على الكون ، سرعان ما يتذبذب العقل اليوناني التأملي ، وبشكل دائم ، من المسلمات إلى العموميات . فوق الطرق الضبابية لتجربة العالم الواقع الى النظرة العقلانية الخالصة للفكرة المجردة . وذلك الشيء هو الذي يفرز تفرده ، وانجازه الفريد ، وكماله ، ولهذا السبب أيضاً يرتاب ، ويزدري ، ويتجنب الخبرة الملموسة ، والعمل في الحدائق الذي يتطلب الملاحظة المكثفة . مثلما ينكر على الرجل الحر ، العمل الموكول للعبيد فقط في الحقول ، متمماً بذلك تحليقه المستقيم شطر مملكة الأفكار العامة والقوانين . لذا فإن اليوناني يذعن للصيغ الفكرية الهندسية المجردة . ولاشكال الفضاء المثالية ، في الوقت الذي يترك مزاولة الأعمال الحسابية إلى البائع في السوق ، وإن الحساب ،او التسلية بالمعنى الحرفي « وهي ترف فكرخالص » ، حيث يرفه اليوناني عن نفسه بنظرية الأرقام ورمزيتها باللعبة الفكرية مع علاقات المستقيمات بغير المستقيمات ، الأرقام المتجانسة والمتكاملة برتل الأرقام وعلاقاتها . وتطبيقاتُها العملية في نظر أفلاطون هي بمثابة إهانة وتلطيخ للرؤ ية المجردة .

وهذا التصنيف ينطبق على المراتب الاجتماعية بدأً بالهيئة الحاكمة ، ونزولاً إلى المهن المبتذلة كأصحاب الحرف ، والمهندسين ، ومهندسي البناء ، والفنيين وختاماً بالعبيد . وهنا ، كما في الفكر كله ، يرسم ذاته : إنه الانحدار اليوناني المتميز من القيمة المطلقة إلى اللاقيمة. الذي، بسقوطه من الله، مجرد القيمة فوق مملكة الفكر ، يعود أدراجه إلى عالم ظل المادة ، إلى العالم غير الطاهر ، الى الشهوانية والجسدية . ونموذج الانحدار هذا ، التلوث

---

(١) Timacious ، مؤرخ يوناني (٢٤٥ ـ ٣٥٠) .

والانحطاط ، يلاقي رواجاً لا مثيل لـه في الافلاطـونية الجـديدة[1] . فهـل كان اعجـوبة ، إن محب الجمـال ، صاحب الشعـور المرهف هـذا ، يخجل وهـو في تساميه وزهده ، إن هو ملك جسداً ؟ لقد اذعن لنمـوذج الانحطاط هـذا ، وهو الـذي نهل من المشارب الـدينية للشـرق المتأجـج روحياً ، المـدمن للخـلاص ، وتدنى لمراتب اضـافية أحط : إن المـوجود الأزلي المـطلق ، الصادق ، المـوجـود وحـده ، الكمـال الالهي السـاكن في ذاتـه ، ينبـع فيض كمـالـه بـالتسـاوي . وينسكب فضله عـلى الدنيـا ، انسكاب شعـاع بئر من مـرتبة فـما دونها . ويخلق بانبثاقه العالم[2] . وفي درجات السلم الأخرى الأبعد ، وبحسب بعدها . على أنـه في السمـاوات العلى يغـرق الشعاع أولاً في عـالم الفكر الـذي يحتوي عـلى مملكة الأفكـار . ومن ثم يسقط الشعـاع الالهي في أفق عـالم الـروح الأقـل كمـالاً وكينـونة ، الـذي ينتمي إلى الأرواح الفـرديـة . ومن هنـا ينسكب هـابـطاً نحـو الأسفـل في عـالم الأجسـام والحـواس ، نسخـة طبق الأصـل من عـالم الأفكـار المدنسة ، العكرة ، المخادعة ، ومنه نـزولاً إلى عالم المـادة المظلمـة العاصيـة التي تمثل اشد الأشياء بعداً وغربة وضعفاً ونقصاً ، الإنكار المطلق للألوهيـة والخير : أي الشر الأزلي . لذا فإن الروح ذاتها تصبح شريرة حالما تـلامس المادة ، تلوث بها وتلطخ ، وتصاب بالشهوة . بحيث أن الانسان لا يرقى إلى المشاهدة الغيبيـة لله الأزلي ، إلا حـين تحرره بـالزهـد من الحواس والجسـد الدنيـوي . وبالسمـو الصـوفي ـ التقشفي ، يقتـرب من الأخـروي الأزلي الـرائـع ، السـاكن في ذاتـه الكامل بلا اسم فوق كل الكائنات .

إن هذا التصميم للعالم كما قدمه أفلاطـون باستكـانة مـزرية في عصـر من عصور الانحطاط ، تـزعمه في نهايـة القرن الخـامس الذي غلبت عليـه الطبيعـة المسيحية الواحدة أحد الآشوريين ، الذي أوصى ، لكي يضمن الهيمنة لتعاليمه المسيحيـة ـ الافلاطـونية الجـديدة ، بـين التعاليم المسيحيـة التي كان يـدعـو لهـا

---

(١) صاحبها من Lyhopolis مصر (٢٠٥ ـ ٢٧٠)، أفلاطون .

(٢) Emanation .

ديونيسيوس الأثني[1] ، أوصى بالعناية بجمهور متفاعل شديد الاهتمام .

إنَّ ما يدعى بالافلاطونية المسيحية الجديدة ، التي كانت تُدرس في الغرب بعناية ، اضافت إلى البناء العالمي للافلاطونية الجديدة أخيلة مسيحية . قدم للانسان الطريد من الجنة ، والذي كان جزاؤه سجن المادة المظلم ، تدرج رتب الملائكة ، والطبيعة المزدوجة . والقى على كاهلها الوساطة بين المذنبين . والقضاء والقصاص للواحد الأزلي بحسب تدرج الرتب في الكهنوت الكنسي . وباستحسان الكنيسة القروسطية لهذه الاضافات ، اكتسبت الشكل الظاهري للمسيحية فقط ، أو الافلاطونية الوثنية القديمة الصبر والتبصر .

ولكن ما الذي حدث بالطبيعة ؟!

كانت في كل رحاب الله ، وفي ذات الوقت مخالفة لله . شريرة دائماً . مادة عفنة . وهي والحال كذلك ، تعني بالنسبة للبشر شيئاً واحد : وحلاً ، ثقيلاً ، معوقاً ، يشده ويهدده بالابتلاع ، والذي ينبغي التغلب عليه .

والشكل المناقض لذلك تماماً ، هو عالم النجوم ! كانت بمثابة جسم سماوي مرتفع فوق عالم المادة . لقد تحركت ـ كما يقول أفلاطون ـ في المثالية البلورية للكرة ، في محيط كامل من آفاقها الشفافة المنتظمة تنظيماً محكماً حول الكرة الأرضية ـ بقدر متوازن ثابت ، مسطح ومتماثل الشكل ومتساوي الأبعاد عن المركز تشغله أجسام بلا خطيئة . وبذلك كان الكون ذاته ـ في الواقع ـ منقسماً إلى فضاءين . في احدهما الأجسام الطاهرة ، غير المتبدلة ، الخالدة ، المستقرة في وضعها من السماء . وفي الآخر (أي الفضاء الآخر) ، عناصر العالم السفلي ، الزائلة ، دائمة الاختلاط والتبدل .

ولقد كان للأفلاطونية المسيحية الجديدة ـ لعالمها ـ ضربٌ خاص آخر من التفاسير : لقد وزعت السماوات سواء منها والنجوم الثابتة أو الكواكب في كل

---

(١) سبق التعريف به .

مرة بين مستويات من الملائكة ، سيرافيم[1] وشيروبيم[2] . أما بالنسبة للملائكة الآخرين من التنظيم المختلف كالملائكة الرؤساء ، فقد أسندت اليهم إدارة السموات والمحافظة على حركتها . وقد أُلحقت بها فيما بعد . ولضرورات مسيحية ـ تحت الأرض وكنتيجة النزول ، تدرج لرتب الشياطين ، وأبليسُ منهم ، في مركز الأرض . وكيف تجلت المعرفة بهذه الطبيعة ؟

لقد كان الجسم الدنيوي العفن ، على أية حال ، وليد المعرفة الواقعية ، اليقين بعدم قابلية الحواس للحصول على المعرفة . لكن مسألة الالمام بمحيط النجوم وانسجامها ، طبقاً لما جاء في الأفلاطونية المسيحية الجديدة ، فقد ضيعها الانسان بذنبه .

موقف الفلسفة الأرسطية من الطبيعة والبحث

وفي صورة، أكثر حيوية، وبأبهة طاغية، ظهر الفكر اليوناني على أوروبا في القرون الوسطى : في صورة سيد العالم ، ارسطوطاليس (٣٢٢ ـ ٣٨٤ قبل الميلاد) ، أو بعبارة أفضل : الاسطوطاليسية . لأنَّ تلميذه الكبير ، أفلاطون أيضاً ، كان لا بد وأن يعجب بادخال بعض التغييرات الافلاطونية الجديدة ، المسيحية ، وربما أعجبته الاسلامية أيضاً !!

وقد قام بويثيوس ، ومن بعده يوحنا الدمشقي بقرنين ، أي حوالي ٧٠٠ ، بترجمة بعض اعماله ـ منطقه ـ الى اللغة اللاتينية .

(وكأب للجدليين)، رسّخ ارسطوطاليس الفلسفة . لقد ايقظ المتعة العقلانيّة المتوطنة في فرنسا خاصة ، على الوضوح والنظام ، كما ايقظ ولعاً ذهنياً فاتراً في فن البرهنة والمحاجة الجدلية المصاغ منطقياً ، كالتحليل ، والتمييز ، والمفاضلة ، والاستنتاج ، والتصنيف ، والتي تحولت ، بالنظر لبقائها بدون

---

(١) Seraphim في الترتيب الملكوتي (السماوي) المكائن بست أجنحة والملاك ، وفي المعتقدات اليهودية .

(٢) Cherapim : ملك أيضاً .

مضمون ، إلى صيغ هشة .

وغالباً ما اعتمد الفكر الأوروبي بادىء ذي بدء على الأفلاطونية . غير ان منقولات فون ياكوب[1] ، في حوالي ١١٢٨ ، وطوفان الترجمة العربية اللاتينية ، القادمة من طليطلة ، أجلست أرسطو طاليس على العرش الذي كان دون مستوى منطقه المتقدم الرفيع . كما أن تفاسير من ترجم له على اختلافهم ، وشروح المسيحيين ، البرت الكبير ، وتوماس فون أكوين ، نقلوا ، كل على هواه ـ صورة محرفة .

وأرسطوطاليس أيضاً كان يونانياً مائة بالمائة ، من حيث أنه وُفق إلى فصل الوجود في أضداد بدقة وتأبيد . لكن النّبش ـ كما يقولون ـ انتهى به إلى مكان آخر . فلقد تمتع ـ أكثر من أفلاطون ـ بنظرة خاصة إلى حقيقة الطبيعة ، وإلى الفرد ، وكان يطمئن إلى معرفته بالحدس . لقد وجه نقداً لاذعاً إلى أفلاطون ، كما أنه عضَّ النواجذ من الغيظ على كل من سبقه . سجَّل مأخذاً على أفلاطون ، أنّه أقرَّ بحقيقة الأفكار العامة فقط . في حين قلب ظهر المجن لكل ما هو فردي ، حين وصفه بأنه ظل وصُوَرٌ وهمية زائفة لا تمت للواقع بصلة . كيف يمكن للحقيقة الفعلية أن تعيش منفصلة خارج نطاق الأشياء والعالم ؟ هل توجد فكرة (الشجرة) كحقيقة ماثلة ؟ أو ليست في حقيقة الأمر إلا الأشجار المتفرقة ؟ (والشجرة) ، اليست مجرد مفهوم ، تخصص به أشياء الطبيعة ، بحسب مشتركاتٍ ، وترتبها بغض النظر عن فروقاتها الضرورية ؟

لكنَّ ارسطوطاليس نفسه ، يساوره الشعور اليوناني بعدم الارتياح تجاه كل ما هو محدد ، معين ، هارب ، ومتغير . وكيوناني ، يشتاق هو الآخر إلى الثابت ، ذي الحدود والاستمرارية . وضآلته تلك ، يعثر عليها في القواعد . إنها تمنح كتلة المادة ـ المجهولة الشكل ـ حقيقتها والغاية منها . وعلى هذا النحو ، فكل ما هو (واقعي) يتألف من مادة وصيغة ، وذو منشأ مزدوج . والمادة الهشة بالنسبة له ، تنفش ريشها حين تتخذ موقفاً معارضاً من القوى

---

(١) من البندقية .

المتشكلة . وهذا بالطبع يعني ، أن الأمر بالنسبة لارسطوطاليس ، هو خلاف لما هو عليه لدى أفلاطون ، وهو ليس عيباً خلقياً : إن المادة ـ على هذا النحو ـ وإن كانت في واقع الأمر غير مكتملة تماماً ، لكنها غير شريرة : هي في ذاتها بلا حقيقة ، لكنها تمتلك « إمكانية » مجهولة ، كقوة واقعة نحو تأكيد ذاتها وبمساعدة من الصيغة ، بحيث يتبقى للمادة المتشكلة دائماً ، بقية باقية مؤسفة من الأرض بالمصادفة ، شائبة من النقيض الدائم . إن المادة منفصلة ، عاجزةٌ ، عديمةُ القدرة ، وعديمةُ الجدوى .

على أنه ، وإن سار ارسطوطاليس إلى الميدان ، ثائراً ضد أفكار معلمه ، فإن صيغة تشابهت مع الأفكار الافلاطونية ، حتى في أدق ملامحها . إن الحد الفاصل الذي رسمه أفلاطون ، بين أفكار العالم الآخر ، بما فيها فكرة الخير ، التي تعلو على كل شيء ، أي الله ، وبين عالم الظواهر الطبيعية . وهذا الحد النهائي الفاصل ، وجب ، لدى ارسطوطاليس ، أن يُرسم أولاً ضمن عالم الأشياء التي تربط بين المادة والصيغة . لقد انحصرت مهمته خاصة ، في انقاذ علاقة احدهما بالآخر داخل نطاق الحقيقة . لكن افلاطون لم يستطع اخفاء اشمئزاز اليوناني من المتبدل ، اللامستقر أمامه ، ورغبته في الوضوح والشكل ، ورسم الحدود الفاصلة . وهو أيضاً أضاف الى الصيغ وجوداً مستقلاً ، تحلق من فوقها الهيئة المطلقة العليا . وهي ليست متحدة بالمادة ، وليست في حاجة لها ، ولا تتأثر باللاكمال ، الذي يلازم كل صيغة من صيغ اتحاده بالمادة .

هي وحدها الروح الصافية ، والفكر الأصيل ، وهي التي تمتلك الكمال المطلق ، الربوبية ، الحقيقة العليا الوحيدة الصادقة . وارسطوطاليس توصل إلى نفس الاستنتاج ، الحد الفاصل الذي أفلت منه في هذا العالم . . أن يستمر في تسييره بتناقص جميل . .

ما بين الوهية متنفذة في القسم العلوي من الطبيعة ، التي كما يقول عنها : موجودة ككائن أبدي ، ساكن ، لا تدركه الحواس ، وبين هيئة عالم المادة . وفوق السُّلّم الخلفي ، دعتْ ازدواجيته الداخلية للعالم ، الإله الذي سبق وأن

طردته منها ، إلى العودة للدخول ثانية .

والسؤال : فيم تؤثر هذه الألوهية على الإطلاق ؟ وإلّه ارسطوطاليس يفكر تفكيراً خالصاً في ذاته فقط . إنه لا يعرف عن العالم شيئاً . وهو ـ كما هو الشأن لدى افلاطون ـ الأزلي الأوحد ، ساكن في ذاته . إلا أنَّ الأشياء كلها تفنى قبل أن تتمكن من الوصول إليها. وهذا الإله ، ككمال مطلق ، وكما لا يمكن أن يكون شيئاً آخر لدى اليونان ، ساكن لانهائي . هو في حالة الاستقرار الثابت والاكتفاء الذاتي والسكون الذاتي ، إلا أنه هو الذي يحرك الأشياء : ليس بصورة نشطة ، وعلى الأغلب يحركها بمفرده من خلال تكوين الهدف من طموحها الشهواني .

وعلى أقصى تقدير هنا ، يجب علينا أن (نتحرر) من تصوراتنا كي يتسنى لنا تعقب مسيرة هذا النمط الغريب من التفكير :

إن الحركة هنا تنشأ عن العجز فقط ، وعدم الاستجابة . وفور بلوغ الهدف ، أي تحقيق الغاية ، تتلاشى الحركة . وهذه الحركة ، ليست تياراً مستمراً كالكهرباء كما يروق لنا أن نتخيل، سيل مستمرٌّ . إن (الحركة) لدى ارسطوطاليس ، هي مجرد انتقال من نقطة سكون ، إلى نقطة سكون أخرى . « إن لكل حركة كما يقول ـ هدفاً وحدوداً ، فيها تنتقل من الحركة إلى السكون ، كيما تحتاج ثانية الى دفعة جديدة لاستئناف الحركة . . إلى علة للغاية .

إن الحركة ، الفعل ، التصرف ، يصعب علينا أن نُحكم استكمال وصفها بعده ـ إنها لا تُفهم من قبل هذا اليوناني في واقع الأمر كممارسة ، بل ككون ـ متحركٍ ، متعاطٍ كسلبية في مواجهة سبب ما لا يكمن فيه . وهي الشرط المسبق لنتيجة متحصَّل عليها . إنَّ « الحركة » ، يقول ارسطوطاليس ، تبدل كيفٍ الى كيفٍ آخر ، ومع ذلك فهذا التبدل لا يشبه مجرى حادثة كما هو الشأن بالنسبة لنا . هو تبدل دون نشاط ، دون حركة ، داخل الذات وخارجها . وعلى هذا النحو صيرورة الطبيعة أيضاً . إن الكون محدد بثبات ، وحيث أن سائر الخلائق تتكون من صيغ ثابتة ، جاهزة . فلا شيء يصبح

جديداً . إنما ينشأ فقط ما كان في الأصل موجوداً . وكما ينطبع شكل المادة من الخارج ، هكذا أيضاً يأتي كل شيء من الخارج متحركاً . من الأعلى .

وهنا يتكرر الاستنتاج اليوناني ثانية عن الصفاء وغير الصفاء ، أو الأصالة وغير الأصالة : الفوقي والسفلي . إنشاء السقوط . مدٌّ سُلّم من عالم القيم العليا في السموات العلى إلى السفلى . ولا بد لكل متحرك وحادث من خلفية في هذا النمط من التفكير ، أي محركاً ، حتى لو لم يكن هذا المحرك بالمفهوم السببي ، بل هو أشبه بإثارة العشيقة لعشيقها وهي قابعة ، تشده بجمالها الأخاذ إليها .

ولهذه المقارنة مغزى عميق . ان العلاقة الأزلية مع الجنس الآخر غير قابلة للانفصال دائماً عن معايشة سلوك الفرد من الالوهية . لأنّ علاقة المرأة والرجل لها تعليل غيبي في كل الخلق الانساني . وهو يطابق في (تركيبه) علاقة الانسان بالعالم ، والقدر ، وما هو الهي . وفي حوض البحر المتوسط ـ اليوناني ، يتفشى الحب بين الجنسين في توتر واسترخاء ، شهوة ورضا ، شوق وإشباع . تنطفىء جذوته حين لا يقوم حافز جديد باثارة الرغبة ، مثلما تقتضي الحركة لدى ارسطو دفعاً جديداً من نقطة الى أخرى ، لا ينبغي لها أن تفتر حيناً .

إنّ الله ، السبب الهدف ، المحرك الذي لا يتحرك ، هو وجود سرمدي قائم . لكن قوته المؤثرة المؤثرة في التحريك تتناقص طبقاً لبعد المسافة .

إن الأجسام السماوية الدائرة في فلكه أبداً ، شديدة الانقسام ، لكنها لا تتحرك . وقد توصل ارسطوطاليس الى هذا الاستنتاج بطريق الحدس وكما يلي : حين يحدث وتتحرك ، فلا بد أن تكون تلك الحركة عنيفة ، لأنها حركة تخص الأرض ذاتها ، وإلا لكان لكل جزء من أجزائها حركته الخاصة به . والحقيقة أن كل ما هنالك ، يتحرك في خط مستقيم نحو مركزها . إذن فمن غير الممكن أن تكون تلك الحركة سرمدية (كحركة الدوران وحدها) ، وبالنظر لكونها عنيفة ومخالفة للطبيعة . ومن ثم تتم الحركة الطبيعية ، كليتها وجزئياتها ، في وسط الكون . لذا فهي تستقر بشكل عملي في نقطة الوسط . ولعل السؤال الذي يفرض نفسه : طالما أن نقطة الوسط لكليهما ـ الأرض والكون ـ واحدة ، فلأي

منهما تتجه الأشياء الثقيلة وأجزاء الأرض تبعاً لطبيعتها : نحو الوسط ، باعتبار أنها تشكل نقطة الوسط من الكون ، أم إليها ، طالما أنها نقطة الوسط من الأرض ؟ إنها تتجه ـ بكلمة واحدة ـ نحو نقطة الوسط من الكون . لأن الاجسام الخفيفة والنار تتحرك في الاتجاه المخالف كالأجسام الثقيلة ، وبالأصح ، حتى أقصى نقطة تحيط بالوسط . إنه إذاً من قبيل الصدفة أن يكون مركز الأرض والكون هو ذات الشيء ، وبذلك تستخلص النتيجة : لا بد وأن الأرض تقع في نقطة الوسط وبشكل سافر . وأن تكون ثابتة ، وللاسباب الموضحة ، ولأن الأوزان المائلة المقذوفة الى الأعلى تعود فتسقط ثانية في نفس النقطة ، حتى وإن قذفتها القوة بعيداً وبلا حدود . ويتبين مما سبق ذكره ، أن الأرض لا تتحرك ، وانها لا تقع بعيداً عن نقطة الوسط . لقد وضع ارسطوطاليس نفسه ـ كمعلم للمنطق والجدل ـ وهو الوحيد الذي حكّم العقل وحده ، فاتخذ القوانين المنطقية المجردة وسيلة لتأمل الله والعالم ، وضع نفسه موضع الشك من قبل الكنيسة . وبعدما ترجمت أعماله عن الغيب من العربية الى اللاتينية من قبل العرب واليهود بعد عام ١١٥٠ واحدة تلو الأخرى ، ولاقت انتشاراً ، خاصة بتعليق الفيلسوف المسلم ابن رشد ، صبت الكنيسة جام غضبها على ارسطوطاليس في عامي ١٢١٠ و١٢١٥ ، وحرّمت دراسة هذه المؤلفات في عام ١٢٣١ ، على أن ذلك لم يستمر سوى وقت قصير ، وبعد أن نجح قادة الجماعة الدومينيكاتية والفرنسيسكانية في ثني عزم الكنيسة . ومن صفوف هؤلاء ، خرج شارحون ، تمكنوا من إخراج اليونانيين من عزلة الالحاد إلى أعلى سلطة في العالم المسيحي . وما لبث بعد وقت قصير أن كافأ من كان إلى عهد قريب مهدور الدّم ، كيوحنا المعمدان (و) بشيراً للمسيح ، أجل ، رأوا فيه خير مجسد للصدق الفلسفي المطلق .

وواقع الأمر ، أنه من أجل تسخير هذا الفيلسوف الوثني لفائدة اللاهوت المسيحي ، كان لا بد من الترغيب فيه . ولقد شاع بنوع خاص ، أنّ السبيل للتحصين من عدوى الفكر الإسلامي ، تجميعُ القوى العقلية الدفاعية وتسليحه بما يحول دون الغواية .

وبتناقضاته الساذجة تلك ، انحنى اليوناني بقدر كافٍ ، لجعله ينثني تحت هياكل الفكر المسيحي .

إن أجمل فصل بين صيغة الكمال واللاكمال في عالم المادة هو الارسطوطاليسية ، وخصوصاً الازدواجية اليونانية ، والصفاء المطلق والاختلاط غير النقي . ولقد رأينا مثل ذلك في الازدواجية المسيحية لإله الخير المطلق وعالم الخطيئة . كم أن هذا التقسيم المزدوج للارسطوطاليسية ، شابه الفصل المطلق للحياة الأخروية ، العلوية والدنيوية الأرضية المكتظة بالنقائص . وكل ما هنالك قابل للقسمة بعمق ، وتُلقى بينهما العداوة بلا أمل للتوفيق : الله والعالم ، الروحي والدنيوي ، الروح والجسد ، الرجل والانثى ـ لقد تعلموا ذلك من أوجستينوس أساساً .

إن جميع تقيمات أفلاطون التي انهمك فيها ، ومعه ارسطوطاليس ، الذي تربطه به قرابة الفكر ، مع بعض التحفظات ، كفكرة الحيز[1] : كان لا بد وأن تحظى ببناء فكري ذي شهرة مرموقة ، تكن احتراماً للاهوت ، ويتمكن بها اساتذه الكنيسة من إقامة صرح تعليمي منهجي منظم مضمون .

ولتحقيق هذا الغرض ، كان لا بد أيضاً ، من خلق انسجام بين الماديات ، قلبُ اسلوب التفكير عند الضرورة لصهرها في بوتقة واحدة ، لمؤاخاتها ، كما يحرص المرء على تسمية ذلك .

إن ذلك ، كان يفترض ، في نظر ارسطوطاليس ، التجرد الكامل ، الباهت ، وافترض في جميع التصورات شكلاً ، معزولاً ، لا ملامح ناطقة في صورة (المحرك الأول) الذي عمل على جعل كل شيء يتحرك ، كما هي الشأن في الخالق المسيحي ، الذي خلق كل شيء ونفخ فيه من روحه نفس الحياة .

ولقد أصبح البرشت فون بولشتيدت ، والذي عرف باسم البرت الكبير (١١٩٣ ـ ١٢٨٠) ، وتوماس أكوين (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) ، أصبحا أكبر

---

(١) راجع الصفحات السابقة .

ناشرين ورئيسي تحرير لأرسطوطاليس، وقد اكتسبا بمؤلفاتهما حول الارسطوطاليسية ، جمهوراً مهيباً حتى نهاية القرن ١٦ . هذا بالاضافة إلى نفوذٍ، ما كانا ليحلم به بدونه إلى جانب الكنيسة أما الأول ، فكان المانياً . ولد في لاوينجن من منطقة شفابن . والآخر ولد في حصن يقع بين روما ونابولي ، في بيت احد الاشراف . النورما ـ ايطالية ، وكان في خدمة القيصر فريدريك الثاني الذي تربطه به قرابة بعيدة وهذان الاثنان ، كانا عضوين في طريقة دينية دومينكاتية ، اسست لغرض الوعظ (وهداية) الملحدين . ولقد ألّفت الدراسة ، وطريقة الحياة التي سلكاها مع الصبية في الجمعيات الدومتيكانية ـ ودورها التعليمية الفلسفية التي اسسها ، الفت بينهما في نهاية المطاف .

كان ألبرت الكبير ـ كمدرس للاهوت ـ مصباحاً فكرياً ، جذب اليه الطلبة أفواجاً ، الأمر الذي حمله على إلقاء محاضراته في الساحات العامة والهواء الطلق بدلاً من الحجرات الضيقة . وهنا تحول توماس الشاب إلى تلميذ متحمس ، يكن لاستاذه احتراماً كبيراً . وبدأت علاقة وثيقة قلما تتوفر بين تلميذ واستاذ . وتواصلت العلاقة في مدينة كولن ، حين استدعى أصحاب الطريقة ، تلك الشخصية الفذة ليكون على رأس حلقة دراسة عامة مستجدة .

وكذلك كانت الحال بالنسبة لتوماس الذي ، جعل من الارسطوطاليسية ، التي أسسها البرتوس ماجنوس بشروحه وتحريفاته التي هزت التاريخ ، أي الصهر المسيحي للغيبيات الارسطوطاليسية ، جعلها اكثر منطقية وجلاء ، المانية عميقة الغور ، وشخصها في شكل متكامل ، منظور ، ومنتظم . فيما جنحت عرقيته الايطالية نحو الوضوح والاجمال والصيغة الكاملة ، ودنو طبيعته الكبرى من الأبطال اليونان . وتعد براهينه الخمس الشهيرة على الالوهية مما يعجز عنه التعبير ، بلى لأن مجرد التفكير باثبات وجود الله بحجج عقلانية ، لأنه ـ البرهان ـ لا يقنع العقل بشكل مباشر .

وبمنطق متشدد ، يشبه تماماً طريقة تفكير ارسطوطاليس ، ومفاهيم وتعاريف أكبر معلمي فلسفته ، أورد توماس هذا المقطع الرائع من السبك

العقلاني : « كي لا تضطر الى التقدم نحو اللانهاية ، وحيث ان شيئاً لا يتحرك من تلقاء نفسه ، بل لكل شيءٍ شيءٌ يحركه ، فلا غنى عن محرك أول . ومن هذا يفهم الجميع أنه الله . وحيث أن لكل شيءٍ سبباً ، وأن الانسان ـ وهو احدى حلقات هذه الأسباب ـ غير قادر على المضي قدماً في اللانهائي ، فمن الضرورة أن نعتقد بأن ثمة سبباً مؤثراً : الله . وحيث أن كل ما هو ضروري ، يستمد ضرورته من شيء آخر ، وأن الانسان لا يقدر على المضي حتى آخر الشوط ، فلا بد من وجود ضرورة تلقائية تبرز بذاتها : الله ! ومن تحديد اللانهاية لحلقات السلسلة هذه ، التي تستوجب التفكير منه ينتج : رابعاً ، أن أفضل وأذكى كائن موجود فعلاً ، هو ما نطلق عليه اسم الله .

على هذا النحو مضى فون أكوين في اتخاذ الفلسفة مطية للّاهوت ، وذلك باستعمال صيغ قوانين المنطق الأرسطي بمثابة مادة للتنظيف ، وتوظيفها لمؤازرة ومساندة حاجات التعاليم الكنسية ، للتسلح ضد الحجج المضادة ، ولتعرية الحجج العقلية للملحدين . غير أن من البديهي أن لا يبقى ، في بيت ومجتمع الحاجة هذين ، غالب أو مغلوب ما بين العقائد المساوية والفلسفة . فهل رأى ارسطوطاليس في القرون المسيحية الوسطى شبهاً لذاته ؟ أو لم تطمس الشروح العربية ـ الإسلامية في شخص ابن رشد الملامح اليونانية في وجهه ، في حين خلّفتْ الثروة الفكرية لاوغسطينوس والأفلاطونية الجديدة فيه آثاراً عميقة ؟

وماذا كان على الطبيعة أن تنتظر من ارسطوطاليس القرون الوسطى ، درب اللسان هذا ، الذي وقف منها ـ الطبيعة ـ موقفاً انقسامياً جلياً ؟ كافلاطون تقريباً ! كيف تبدو الطبيعة في نظره ؟ وبدون أوغسطين أيضاً .

إنه ـ خلافاً لأفلاطون ـ وإن كان يدعو إلى تجربة الوقائع بدقة ، ويجمع أيضاً كثيراً من الحقائق الفردية ، إلا أنه لا يتقيد شخصياً بنصيحته مطلقاً . ففي تأملاته للطبيعة ينساق خلف رؤاه الغيبية اكثر من الحقائق ذاتها . ولا ينتظر منه غير ذلك لأن معرفته بالطبيعة تمر عبر مُصفٍّ هو منظار الفلسفة الطبيعية . وهكذا فهو يضمِّنُ الظواهر الطبيعية ، طبيعةً معينة ساكنة فيها ، قُدمت اليها

من خلال الأشكال . كالجمر مثلاً ، أعطاه طبيعة أرضية جعلته يرتمي عليها ، لأنه ـ الحجر ـ يشتاق وبصبر فارغ الرجوع إلى موطنه . أو كما أعطى النار ـ التي تدني بلهبها المتصاعد لطبيعتها الهوائية ، التي يشدها الحنين الى أعلى ، وطنها في السماء . ولأنّ الخشب ـ هكذا يقول الفيلسوف ، وكما أطلق عليه العالم القديم ـ تقديراً له ، حسب إمكانيته حارٌ ، فلا يمكن إلا أن يصبح حاراً حين يخرج من إهابه إلى الواقع .

وهذه (الصيرورة) ، كسائر الحركة ، لا تزيد على كونها مرحلة انتقالية من الامكانية نحو الحقيقة . في حين أن الحركة التي تحتل حيزاً ، تحتاج إلى محرك جبار ، يسهر على تأمين هذا الشيء تبعاً لعلاقاته الممكنة نحو الهدف المُطال ، بواسطة الواقع والصدام من جهة ، ومن جهة أخرى بواسطة الجذب من حواشي الهدف أو الغاية ، فلا بد للمتحرك من محرك .

ولنذهب بعيداً جداً . فلدى السؤال عن القوانين والعلاقات الكمية والعددية المدْركة ، فإنّ ما يهم ارسطوطاليس هو العلاقات والارتباطات الكمية ، الملموسة ، الملوَّنة من أجل تفسير حادثة ما . وهذا أيضاً نمط يوناني ـ اوسطي خاص . إنها لا تستفسر عن ماهية الأشياء ، مركباتها ، فمعناها بالنسبة له لا يكون إلا بقياسها بشيء آخر . إنها لا تصب اهتمامها على الكائن ، بقدر ما تهتم بالعلاقات النوعية ، كالمودة ، والصداقة ، والحنين أو النفور . وقد عبر الفيلسوف الفيتاغوروتي (نسبة الى فيتاغورت) عن ذلك بقوله : إن الفكر اليوناني يستجلي حقيقة الأمر (الأشياء) في علاقاتها مع ذاتها ، وعلاقة الواحد بالآخر واليوناني ميّالٌ إلى المقارنة الدقيقة ، وإلى التفريق والتحديد وتصنيف الاضداد . وارسطوطاليس كذلك : معرفته بالاشياء ترتكز على وشائج الاتصال والتفاعل بينها ، أي على القربى أو التضاد . على تجاذبها وهيمنتها . وتلعب ـ في هذا السياق ـ العناصر الأربعة ، وهي النار ، والهواء ، والماء ، والتراب ، التي ترجع في الأصل إلى امبيدوكلس Empedokles ، تلعب دوراً ، تُصنّف بطريقة أو بأخرى مع الأزواج المتنافرة : البرودة والدفء ، الجفاف والرطوبة . ولعل النظريات السبع الآتية بصفة خاصة ، هي التي اربك بها ارسطوطاليس العالم

القديم واسدى له بها خدمة ثنته عن العثور على ذاته ، وعن التوصل الى رؤية ذاتية للطبيعة ، وعن العثور على الطريق الموصلة الى العلوم الطبيعية :

١ ـ الإزدواجية بين الهيئة والمادة ، المادة الناقصة التي تظل بالاتحاد مع الشكل خليطاً غير صافٍ وغير مكتمل وملازمة للقصور ، وتبقى منفصلة أبداً عن الهيئة النقية .

٢ ـ إن القسمة المزدوجة للكون إلى طبيعتين من مستويات متباينة ، تخضع لقوانين مختلفة : السماء غير الفانية ، غير الناشئة من غيرها ، التي تتحرك بفضل قربها من المحرك الذي لا يتحرك ، باعتدال وبلا عنف ، وإلى نطاق الأرض الرابض في عمق نصف السماء السفلي ، والذي نظراً لبعده الساحق من مشيئة الله ، لا يحظى بنصيب من الحركة ، والذي لا تؤثر فيه سوى الحركة الضارية .

٣ ـ ونموذج هبوط سائر الموجودات على سلَّم القيم والسببية من الأعلى نحو الأسفل .

٤ ـ وعقيدةُ الشكل المثالي للكرة ومدار سائر الكواكب وآفاق النجوم ، وقشور الكرة الأرضية (اليابسة) التي احصاها أرسطوطاليس بـ ٤٧ .

٥ ـ مفهوم (الحركة) ، كمرحلة انتقالية من نقطة سكون الى نقطة سكون أخرى .

٦ ـ تصور العناصر الأربعة ، حنينها ، تعاطفها ، واواصر القربى بينها .

٧ ـ تفسير مجرى الحدث ، لا من ذاته ، بل من خارجه ، انطلاقاً من الأهداف التي بلغها « المحرض نحو الغاية » .

وقد اصبحت هذه النظريات العلمية ، إضافة إلى القوة الفارضة ، التي مارسها هذا اليوناني ، بفضل الزواج السعيد الناجح ، بين الازدواجية المسيحية واليونانية على العقل الأوروبي ، أصبحت منذ القرن 12 ، أمراً استبدادياً ، مباركة كنائسياً ، ومدعومة فلسفياً ، وعلى وشك أن تصبح متصلبة عقائدياً ،

ومن عـواقبها الـوخيمة ، أن كـوّنت عائقـاً فريـداً من نوعـه في وجه ميـلاد علم طبيعي أصيل . وإنها أصبحت تستدعي ضرباً آخر من التفكير ، يلقي بها جانباً ويستبدلها بمنظور آخر .